Al-Hais Bays Poetry Between Tradition and Renewal

Mustafa Majeed Naji
Department of Arabic Language, Al-Maarif University College, Ramadi, Iraq
mustaf.naji@uoa.edu.iq

KEYWORDS: **Hays Bays, Tradition, Renewal, Purpose, Form.**

https://doi.org/10.51345/.v34i3.837.g383

ABSTRACT:

The Abbasid era witnessed distinction and a qualitative shift in various areas of life, and this development depended on several factors, including the transition of people from the Bedouin to the civilized city, from poverty to wealth, and from introversion to coexistence with various races, and these factors helped to keep up with this poetry The development and the tradition and innovation in it appeared to us. As for the idea of renewal, the poet is always eager to break out of the cycle of monotony, following, and imitation. The phenomenon of renewal in Arabic poetry is not recent and limited to contemporary modern poets. Rather, it is a civilizational phenomenon with roots in our poetic heritage. Differs from; For the aforementioned reasons, if renewal is a new innovation that has not been found before, then renewal came at all levels of the poem in terms of form, content or purpose, so renewal is considered a revolution against the old in order to replace it with something new. And our poet Hais Bays succeeded in imitation and renewal, so he did not leave the originality and originality of the poetry of the first poets, but rather you see his poetry as if it were from the pre-Islamic era, as we see the old tendency remained somewhat conservative, but this does not mean that he remained an imitator, rather he kept pace with the development taking place in his era and took the idea Renewal in his poetic production in terms of its themes and structures.

شعر الحيص بيص بين التقليد والتجديد

مصطفى مجيد ناجي
قسم اللغة العربية،كلية المعارف الجامعة، الرمادي، العراق
mustaf.naji@uoa.edu.iq

الكلمات المفتاحية | حيص بيص، التقليد، التجديد، الغرض، الشكل.

https://doi.org/10.51345/.v34i3.837.g383

ملخص البحث:

لقد شهد العصر العباسي تميز ونقلة نوعية في مختلف مجالات الحياة، وقد اعتمد هذا التطور على عوامل عدة، منها انتقال الناس من البداوة الى المدينة المتحضرة، ومن الفقر الى الثراء، ومن الانطواء الى التعايش مع شتى الأعراق، وقد ساعدت هذه العوامل على مواكبة الشعر هذا التطور وظهر لنا التقليد والتجديد فيه. إن مسألة التقليد واضحة المعنى فالشاعر يتخذ من نظم أشعار شاعر من الأوائل نموذجاً يقتدي به، أي يتبنى الشعراء المتأخرون لأسلوب الشعراء المتقدمين، فتأتي اشعاره ملتزمة إما على مستوى مفاصل القصيدة المعروفة من مقدمة طللية، ووصف الراحلة، ووصولا الى الغرض الرئيس ثم الخاتمة، أو على مستوى المضمون والصورة الفنية والمعجم. أما فكرة التجديد عند الشاعر فهي متلهفة دائما إلى الخروج عن حلقة الرتابة، والاتباع، والمحاكاة، وظاهرة التجديد في الشعر العربي ليست حديثة العهد ومقصورة على شعراء الحداثة المعاصرين، وإنما هي ظاهرة حضارية ممتدة الجذور في تراثنا الشعري، إلا أن التجديد في النتاج الشعري في العصر العباسي يختلف؛ للأسباب آنفة الذكر، إذا إن التجديد هو ابتداع جديد لم يسبق الاهتداء اليه، فجاء التجديد بكل مستويات القصيدة من حيث الشكل أو المضمون أو الغرض، لذا يعد التجديد ثورة على القديم بغية احلال شيء جديد بديلا عنه. وشاعرنا الحيص بيص قد وفق في التقليد وفي التجديد، فلم يترك الاصالة والعراقة لشعر الشعراء الأوائل، بل ترى اشعاره وكأنها من العصر الجاهلي، إذ نرى النزعة القديمة ظلت محافظة بعض الشيء، ولكن ليس هذا بمعنى أنه بقي مقلدا بل واكب التطور الحاصل في عصره وأخذ بفكرة التجديد في نتاجه الشعري من حيث موضوعاته وأبنيته.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الذي أحصى كل شيء عدداً، وجعل لكل شيء أمداً، ولا يشرك في حكمه أحداً، والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.. وبعد

ولا شك أن الادب شأنه شأن مفاصل الحياة الأخرى، يصيبه التجديد والتطور؛ لأنه المعبر عن رأي الفرد والجماعة، ولسان حال المجتمع في كل العصور والأزمنة، فلو تتبعنا معطيات التجديد التأريخية التي أفرزتها المراحل الأدبية المتعاقبة ووقفنا جليا عند بعض الشعراء لوجدناهم قد عملوا بأصالة فنية لا تخلو من التقليد، إلا أنهم نظموا قصائدهم بلغة معاصرة بعض الشيء، وتحرروا من قواعدها القديمة وقوالبها، ولم تنحصر أفكارهم وموضاعتهم في نطاق الأغراض الشعرية المعروفة، وإنما أدخلوا نتاجهم الشعري في معترك الحياة السياسية

والاجتماعية، والشاعر حيص بيص كان قد وفق في التقليد والتجديد في نتاجه الشعري إذ جاءت أشعاره تحمل في طياتها الفاظاً تحاكي القديم والجديد.

لقد انتظمت الدراسة في هذا البحث على المقدمة ثم التمهيد الذي تضمن حياة الشاعر الحيص بيص والتعريف بمفهومي التقليد والتجديد، وتضمن المبحث الأول التقليد في شعر الحيص بيص من حيث الغرض والشكل، ثم تضمن المبحث الثاني التجديد في شعر الحيص بيص من حيث الغرض والشكل، ثم الخاتمة وتليها المصادر والمراجع.

التمهيد:

أولا: حياة الشاعر:

هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي الملقب بشهاب الدين المعروف بحيص بيص الشاعر المشهور؛ ينتهي نسبه إلى أكثم بن صيفي حكيم العرب المشهور، وقد حاول بعض الناس التشكيك في نسبه دون ان يستندوا إلى حجة تدفع صحة انتسابه، ولعل تشببه بأعراب البادية، وكثرة فخره بنسبه، هو الذي جر عليه ذلك.

ولد الشاعر في بغداد سنة 492هـ على ما ذكره ابن جماعة الكناني في كتابه (معجم الأدباء). وقال ابن كثير في (البداية والنهاية) أنه مات وله من العمر ثنتان وثمانون سنة، بعد أن ذكر سنة وفاته المتفق عليها (574هـ) وعلى ذلك تكون سنة ولادته مطابقة لراوية ابن جماعة، أما من سبقوهما بترجمته فذكروا انه لا يعرف عن تاريخ مولده شيئا وإذا سئل عنه قال: أعيش في الدنيا مجازفة.

كان فقيهاً شافعي المذهب، تفقه بالرأي على القاضي محمد بن عبد الكريم الوزان، وتكلم في مسائل الخلاف، إلا أنه غلب عليه الأدب ونظم الشعر، وأجاد فيه مع جزالة لفظه. وله رسائل فصيحة بليغة.

ذكره الحافظ أبو سعد ابن السمعاني في كتاب (الذيل) وأثنى عليه. وحدث بشيء من مسموعاته، وقرئ عليه ديوانه ورسائله، وأخذ الناس عنه أدباً وفضلاً كثيراً؛ وكان من أخبر الناس بأشعار العرب واختلاف لغاتهم. ويقال إنه كان فيه تيه وتعاظم، وكان لا يخاطب أحداً إلا بالكلام العربي.[1]

ثانيا: في مفهوم التقليد والتجديد:

تعد قضية التجديد والتقليد في الشعر واحدة من أهم القضايا التي عالجها النقاد قديماً وحديثاً، وذلك لارتباطها بتغيرات المناخ الحضاري برمته، وليس ميدان الشعر حسب.

و المقصود بالتقليد هو المحافظة على نهج القصيدة العربية القديمة موضوعا وشكلاً، ومحاولة مجاراة الشعراء العرب في عصورهم السالفة ومحاكاتهم. وقد عرفه مؤلفا كتاب معجم المصطلحات البلاغية بانه محاكاة كل ما تواضع عليه الأدباء قديما من صور بلاغية وتركيبات أسلوبية توارثها عنهم الأدباء المعاصرون(2).

أما المقصود بالتجديد فهو محاولة الخروج على نهج القصيدة العربية القديمة من حيث الموضوع والفكرة والاسلوب.

ويعد التجديد "سنة من سنن الحياة، ملازمة لها، يدخل على نمط الحياة والمشاعر والأخلاق ويلامس ما تنتجه القرائح من أدب وفن، وما من امة إلا وعرفت في تاريخها شدا وجذبا بين الجديد والقديم، والناس في جميع العصور يتشبثون بماضي أجدادهم ويصنعون حاضرهم ويتوقون إلى مستقبلهم. والخلاف بين القديم والجديد موضوع جدل ملازم لكل المجتمعات، ويمكن ان يكون فكريا بناء يرنو الى الافضل ويمكن أن يكون عقيما معطّلا للتطور"(3).

ولا شك أن الادب شأنه في ذلك شأن مفاصل الحياة الأخرى، يصيبه التجديد والتطور، لأنه المعبر عن رأي الفرد والجماعة، ولسان حال المجتمع في كل العصور والأزمنة.

المبحث الأول: التقليد في شعر الحيص بيص

بالرغم من النقلة الحضارية التي شهدها العصر العباسي على المستوى السياسي والاجتماعي، والتي رافقها تحول على مستوى الشعر، إلا أنَّ النزعة القديمة ظلت محافظة بعض الشيء، ومعتمدة على ما أملته القصيدة العربية القديمة على مستوى الموضوع والشكل، فقد ظل نفر كبير من الشعراء يكتبون بأغراض المديح والرثاء، والهجاء، والغزل، والفخر، والهجاء، وغيرها من الأغراض التي كانت مسيطرة على المشهد الشعري الجاهلي آنذاك. وعلى مستوى الشكل أيضا فقد ظلت قصائد كثيرة محافظة على الشكل الهندسي للقصيدة العربية القديمة من حيث كثافة الصورة الشعرية، وفخامة اللغة، وجلال الوزن؛ إذ ليس من اليسر —كما يرى الدكتور طه حسين– "أن يصبح الانسان وقد ألف الحياة القديمة ونشأ فيها وعاش عليها دهرا من حياته، ثم يتصل بحياة أخرى أجنبية طارئة فيتحول فجأة من مقلد إلى مجدد، بل لا بد من أن يطول اتصـــاله بهذه الحياة الطارئة"(4).

اولا: التقليد في الغرض:

لعل من أهم الأغراض الشعرية القديمة التي كتب فيها شاعرنا الحيص بيص هي (المديح، الرثاء، المديح، الغزل، الهجاء، الفخر، العتاب والاستعطاف، والوصف....)(5)، وقد احتل المديح في ديوان شاعرنا الحيص بيص المرتبة الأولى في عدد الابيات الشعرية، لذا فان شاعرنا احتل مكانة خاصة عند شعراء عصره، فقد اشعل

جذوة المديح من خلال مدحه لخلفاء وأمراء عصره ومكانة في قدرته الشعرية في هذا المجال، ومن ذلك قوله في مدح أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (رضي الله عنه):[6]

صنو النبي رأيتُ قافيتي أوصافَ ما أُوتيت لا تسع
فجَعلت مدحي الصمت عن شرف كلُّ المدائح دونه تقع
ماذا أقـــولُ وكلُّ مقْتســـــم بين الأفاضـــــتل فيك مجتمــتع

وفي هذه الأبيات يشير الشاعر إلى ان شعره عاجز عن أن يسع فضائل ومحامد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولهذا فهو يؤثر الصمت لهذا الشرف العظيم الذي لا تفيه الكلمات حقه. وفي القصيدة نجد اخلاص الشاعر لحقيقة ممدوحه تمجيدا للفضائل الحميدة التي يمتاز بها أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه والتي من أهما أنه من آل بيت النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولشاعرنا قصائد في مدح ال بيت النبي، منها قوله(ﷺ):[7]

قومٌ إذا أخذَ المديحُ قَصائداً أخذوه عن طه وعن يس
وإذا انطوى أرقُ الأضالع وقَّروا مَيْسورَ زادِهِمُ على المسْكين
وإذا عَصى أمرَ الموالي خادمٌ نفَذت أوامرهم على جَبرين
وإذا تفاخرت الرِّجالُ بسيِّد فخروا بأنزَعَ في العلوم بَطين
ملْقي عمود الشّرك بعد قيامه ومبين دين الله بعد كُمون
والمستغاثُ إذا تَصافَحت القَنا وغَدتَ صفونَ الخَيل غير صفونَ
ما أشكلَتْ يوم الجدالِ قضيَّةٌ إلاَّ وبدَّلَ شكَّها بيقين
مستودَعُ السر الخفيِّ وموضع الخُلق الجَليِّ وفتْنةُ المفْتـــون

ومن الأغراض التقليدية الأخرى التي كتب بها شاعرنا، الفخر، حيث يأتي الفخر في الترتيب الثاني بعد المديح لدى شاعرنا وإن كانت نسبته قليلة مقارنة بالمديح. "والفخر هو المديح نفسه الا أنَّ الشاعر يخص به نفسه وقومه بهذا المديح"[8]، ومن أمثلة هذا الغرض عند شاعرنا قوله:[9]

خذوا من ذمامي عدةً للعواقب فيا قرب ما بيني وبين المطالب
مرهتُ بإدماني سري كل حادث ولا كحل إلا من غبار المواكب
فلا تصطلوها أنها دارميَّةٌ مواقدها هام الملوك الأغالب
سأضرمها حمراء ينزو شرارها على جناب القاع نَزْوَ الجنادب
بكل تميمي كأن قميصه يلاثُ بغُصن البانة المتعاقب

فوارس باتوا مجمعين فأَصبحوا وآثارِ عقد الرأي عقدُ السَّبائب
إذا شرعوا الأَرماح للطعنِ خلتهم بدوراً تجارَي في طلاب كواكبَ
أسوداً إذا شبَّ الخميس ضرامه أسالوا نفوس الأسد فوق الثعالبَ

هنا تتجلي ألمعية الكلمة الشاعرة في روح جمالية اشراقية تفضح لنا صدق مكارم الاخلاق التي هي عنوان الحياة ومرآتها، فيوصف لنا كل هذه الاسرار في قصيدته، فأكد لنا الشاعر في هذه الابيات صفات عدة يتصف بها بنفسه وقومه والتي اخذ منها صفات الممدوحين فيما بعد.

وقال في هذا الغرض ايضا:[10].

جمعت تميم مجدها في دارمٍ فأُقرَّ فاخرَ مجدها في أَكْثَم
وهم نَموني بالعراق مفوَّهاً ذَرِبَاً إذا ما قلتُ غير مُجمجم
يخشى بليغُ الحي شرَّةَ مقولي ويهابني بأس الكمي المعلَّم

في هذه القصيدة نرى ان الشاعر لا يفتخر بشجاعته وكذلك قوته ولكن بما يتمتع به من بلاغة في شعره وكيف ان البليغ يخشى من شاعرنا مقوله.

ومن الأغراض التقليدية التي كتب بها شاعرنا أيضا غرض الرثاء من ذلك رثاء الوزير الكبير "شرف الدين علي بن النقيب الكامل أبي الفوارس طراد بن محمد بن علي الهاشمي العباسي الزينبي البغدادي الذي ولد سنة اثنتين وستين وأربع مائة، كان صدراً مهيباً، دقيق النظر، حاد الفراسة، عارفاً بالأمور السنية العظام، شجاعاً جريئاً"[11] منها قوله:[12]

تَعاظم حزني والرَّزيَّةَ أعظم وعزَّ وقاري التَّهتُّكَ أحزم
وقالوا اصطبر فالصبر بالأجر كافل وصبري على ما ناب وزر ومأثَم
أرى الصبر غدراً بالوداد ولا أرى مع الغدْر أجراً يستقيم ويسلم
تمنَّيتُ أخلاقَ النساء ووقْفةً لها رنَّةٌ يشْقى بها الطَّرفُ والفمُ
فأرجعُ شُمَّات الأعاديَ برقَّتي أخلاَّء صدق وجدهم يتضرم
لقد سلبتني الحادثات مُمَدَّحاً وانيِ إذا لم أبْكه لَمُذَمَّم
سلبن الوشيكُ النصر والموئل الذي يَجير على صرف الليالي ويعصم

وفي هذا النص يشير الشاعر إلى عظيم حزنه وكبير لوعته على فقد شرف الدين الزينبي. ويبدو على النص جودة الصياغة وصدق العاطفة وقوتها كما هي القصيدة العربية القديمة.

ومن ذلك أيضا قوله يرثي أخاه:[13]

دعـوا دمـعـي بـيـوم الـبـيْن يجْـري ... فقـد ذهـب الأســى بجميلِ صــبْري
وكـيـف تصــبُّري وأخـي رهـين ... بأرض الشـــام في ظَـلْـمـاء قَـبْر
بحـارة غُـربـة مـن أرضِ حمـصٍ ... لـقـد غَـدر الـزمـانُ وأيَّ غَـدْر
أعـنـه أســأم ســلْوانا وصــبرا ... ســأنْـدبـه ولا خنْســاء صــخْر
فـإنْ عـجزت عن النَّـدب القوافي ... بـعـثـت الـدمـع نَـظْـمـاً غير نَـثْر
فقدْت أخي وكـان أخـي ظَهيـري ... على الحدثـــــان سَمَّاعـــاً لأمـري

وفي القصيدة يبكي الشاعر أخاه وظهيره الذي مات بأرض الغربة في الشام، حيث يذكر محامد أخيه ومحاسنه من كرم وشجاعة، ويستفيد الشاعر في القصيدة من توظيف شخصية الخنساء التي عرفت بصدق رثائها لأخيها صخر، الذي كان ملجأها وحاميها عند الشدائد، فالشاعر سيبقى في حزنه على أخيه أكثر من حزن الخنساء على أخيها صخر، والتي عرفت بأنها أقامت زمانا عند قبره تبكيه وتندبه.

أما شعره في غرض الغزل فقليل جدا مقارنة بشعره فيما عداه. يقول محققا الديوان "وتضمن شعره قليلا من الغزل، تبدو عليه قوة الصنعة لا رقة العاطفة"[14].

وقصائده في المدح لم يتبع فيها أسلوب القدماء في تصديرها بالغزل بالرغم من أنَّ بعض ممدوحيه يسرهم أن يفعل ذلك، ويذكر محققا الديوان ان البعض منهم اقترح عليه ان يقول الغزل، فلم يستجب إلا بعد اباء وطول تردد ولذلك جاء به متكلفا جافا ومثَّل بقوله[15]:

عفا ضارجٍ من آل ليلى فعاقل ... وخفَّـت بأعبـاء القطين الرَّواحـلِ
ونيطَ رقيم فوق زُهْرٍ كأنها ... نوارُ نَعـام أنكـر الإنْس جـافـل
وعاود قلبي راجعٌ من صبابة ... فلا اللوم يلْهيه ولا العذلُ شـــاغل
وهيَّج وجدي والدُّجى مرجحنةٌ ... حمـامٌ بأغصـــان الأراكـة هـادلُ
سجعن وقلت الـشعر لكن أدمـعي ... سـوافـح مـن حـرِّ الـفـراق سوابـل

وفي هذه المقدمة بدا غزله متكلفا عار من رهافة الحس وحرارة العاطفة مقارنة بشعره في بقية الأغراض، والسبب أنه لم يأت عن تجربة حقيقية عاشها الشاعر وإنما كان لغرض التقليد الفني للقصيدة العربية القديمة من حيث أنها تبدأ بمقدمات غزلية ثم تتخلص منها إلى غرض القصيدة الأساس.

ويرى أحد الباحثين أن سبب انصراف الشاعر عن الغزل لأنه وجد فيه ما يتعارض مع صرامة شخصيته، والفخر بذاته[16].

ثانيا: التقليد في الشكل:

يقول أحد الباحثين: عندما نقرأ لهذا الشاعر فكأننا نقرأ لشاعر جاهلي أو اسلامي من الطراز الأول، وما زال متمسكا بالبناء الفني التقليدي، واللغة السليمة بقوتها وجزالتها من تراكيب شعرية خالية من أخطاء اللغة والنحو، والصور الفنية الغزيرة[17].

ومن القصائد التي يظهر فيها البناء اللغوي المحكم الذي ينهج نهج القصيدة الموروث قوله[18]:

جلبت الخيل تمرح بالعوالي ... عيد ضـــحى معاركها ظلاما
رواسب في الغُبار وطافيات ... تخالُ رعيل ســـبَّقها ســـهاما
تَجانفُ عن زُلال الورد شدّاً ... قـد جحظـتْ نواظرهـا اُوامـا
تبلَغ مُثْعلاً صَـــرفاً نَجيعاً ... أســـألَ طُلى لواردَها وهاما
عليها كلُّ أغْلَـب شمـــري ... يرى الاحجام دون المَوت ذاما

ويبدو على القصيدة تأثر الشاعر بالقصيدة القديمة من حيث بناؤها، ومعجمها الخاص الذي اتكأ على لغة فخمة تمتاز بالرصانة والنصاعة، وتحذو حذو الصياغة العربية في المفردات والتراكيب.

ومن التقليد في شكل القصيدة أيضا اعتماد الشاعر على نظام القصيدة الطويلة التي اشتهرت بها القصيدة الجاهلية على الرغم من غرام الشعراء بالمقطوعات القصيرة استجابة لروح العصر، ومن القصائد الطوال قصيدة كتبها في مدح شرف الدين علي بن الحسين يقول في مطلعها[19]:

أقولُ لقلب هاجه لاعج الهوى ... بصحراء مرو واستشاطت بلابلُه
لدن غدوة حالت شطون من النوى ... وأقتم نائي الغور تُخشى مراحلـه
وضافت خراسان على معـرق الهـوى ... كما أحرزت صيد الفلاة حبائله

إذ بلغت هذه القصيدة سبعة وخمسين بيتا، نهج فيها الشاعر منهج الشعراء التقليديين، من حيث تعداد محاسن الممدوحين واستعمال الألفاظ الجزلة ذات الجرس الموسيقي العذب. وغير ذلك من قصائده في غرض المدح.

المبحث الثاني: التجديد في شعر الحيص بيص

عرف الشعر العباسي نقلة نوعية في مضمار الشعر، مواكبا بذلك مجمل التطورات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي حصلت في ذلك العصر. حيث برزت موضوعات شعرية جديدة، واخترعت أوزان لم تكن معروفة من قبل، وتجددت اللغة والاساليب؛ فأخذ الشعراء يكثرون في أشعارهم من الجناس والطباق والاستعارات وغيرها من الأنواع البديعية المختلفة[20].

ويرى الدكتور طه حسين أنَّ من أهم الأشياء التي أعانت على التجديد في الشعر العباسي ما أدخله الأجانب الذين نقلوا إلى الحجاز من الغناء الذي نقلوه من لغتهم ومن بلادهم إلى اللغة العربية، فلم يكد العرب يستمعون لهذا الغناء حتى شغفوا به وأقبلوا عليه إقبالاً شديداً، ثم أثاروا ذلك في شعرهم، فأخضعوا شعرهم لهذه الموسيقى وخففوا أوزانهم القديمة وجعلوها ملائمة أشد الملاءمة لهذه الانغام التي جاءتهم من بلاد الفرس والروم.[21]

ولعل من اهم العوامل التي ساعدت على ظهور المناهج الجديدة في الشعر والتجديد في موضوعاته وأبنيته، هي اختلاف صور الحياة، وقيم الأشياء في الدولة العباسية، وتطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على أعمال محدودة، وذلك بسبب تعدد أعمال الناس وزيادة تجاربهم، واخيرا وهو الأهم تأثير الثقافة الاجنبية والفارسية على الأدب بصورة عامة[22].

أولاً: التجديد في الغرض:

لعل من اهم الأغراض الجديدة التي كتب فيها شاعرنا هو شعر التهاني، والذي يعد ظاهرة جديدة طرأت على سطح الشعر العربي، على الرغم من أن ظاهرة التهاني هي ظاهرة اجتماعية قديمة عرفتها الأمم والشعوب الأخرى[23].

ولعل من أهم الأبيات التي نتلمس فيها هذا الغرض قوله[24]:

تعدَّتك أعراض الخطوب وجانبت ... جنابك عُمر الدهر أيدي النوائبِ
ولا زلْت حلف الصحَّتين كليهما ... مطاعاً حميد المبتغى والعواقبِ
فحاسد فضليك الشهيرين في الورى ... ثقالُ الغوادي أو خفافُ القواضبِ
فلا سيف الا وهو للعزم مُذْعــن ... ولا غيث الا شاهدٌ للرغائـــــبِ

إذ يهنئ في هذه القصيدة ابن البلدي بعد أن شفي من وعكة صحية أصابته. وفي هذه الأبيات يمزج الشاعر بين التهنئة والمديح، فهو لا يكتفي بتهنئة ابن البلدي وإنما يضفي عليه الخصال الحميدة ويشكره على عطاياه الجزيلة.

ومن ذلك قوله أيضا في تهنئة الإمام المستضيء بأمر الله بقدوم شهر رمضان، حيث يبدأ كعادته بذكر مناقب الإمام وخصاله الحميدة:[25]

أمينُ اللهِ والحامي حماهُ ... وراعي الخَلْق والعَلَم المشارَ
وسائرِ ليلَه رأي ونُسكٌ ... وللنُّوَّال قَبض وانتشار
أنيس بالمَناقب والمعـالي ... وعند العار وَحْشيٌّ نَـوار

ثم يختم القصيدة مهنئا إياه ومشيدا به ومؤكدا بانه مفخرة لدولته:

فهُنّيَ بالصّيام وكلّ شيء فللدُّنْيا بدولَته افْتخارُ

ومن شعر التهنئة عند حيص بيص أيضا قوله[26]:

شجع الطبيب وليس بابن مكدم فيكم وليس بعنتر الكرار
لما دنا بحديدة مسنونة لجراح أشبال الهزبر الضاري
فحمته من شرك المهالك سنة مأثورة عن أحمد المختار
فطردت بأس حفيظتي بتبعـدي وهزمت عن ديني خميس العـــار

وفي هذه المقطوعة يهنئ حيص بيص رجل ختن ولده، حيث يصف عملية الختان، ورهبة الجالسين لما دنا الطبيب بالموس، فلم يبق فيهم فارس او شجاع، ويأتي في وصف ذلك المشهد اسمين من فرسان الجاهلية وهما ربيعة بن مكدم وعنترة بن شداد.

ومن التجديد في الأغراض أيضا قوله في الزهد[27]:

وتنوعت قرب العباد فراشد ومضلل الأعمال غير رشيد
وأتيت بابك مفلسا من عدة لي غير حسن الظن والتوحيد

وفي هذين البيتين يناجي حيص بيص ربه بأن قرابين العباد قد تنوعت، أما هو فقد طرق بابه مفلسا، إلا من توحيده لله وحسن ظنه به. ولذا فهو يرجو رحمة ربه بأن يغفر له ويجازيه على ذلك.

ثانياً: التجديد في الشكل:

لعل من أول مظاهر التجديد في الشكل في الشعر العباسي عموما وفي شعر حيص بيص على وجه الخصوص هو البعد إلى حد ما عن القصائد المطولة التي كانت أساسا في الشعر الجاهلي. واختيار مقطوعات صغيرة لا تتجاوز بضعة أبيات.

ومن ذلك قول الحيص بيص:[28]

هب العذر في مطل الرغيبة أقبلت شواهده وضَّاحةً ودلائلُه
فما العذر عن جارٍ يبيت بأرضكم معطَّلةً أحشاؤه ومراجلُه
وشر قرى ما شابه مَطل قـــادرٍ وأتعبُ رز قٍ ما الموفق باذلُه

ومن ذلك قوله أيضا ما كتب به الى الأمير عنتر بن ابي العسكر:

أبا الفوارسِ والأيامَ شاهدةٌ أني بمدحك ذو شدوٍ وتغريد
وأنني صغتُ في علناكَ من مدحي غراً يبارين حسن الخُرَّدِ الغيد
وحسن عهدكَ مشهور وأكـرمه وفاؤه لصحيـح الودّ مَودودَ

ومن ذلك ايضا ما كتب الى سديد الدولة أبي عبد الله بن الأنباري وهو يومئذ كاتب الانشاء للمسترشد[29]:

لئن خالت نوى قذف شطونٌ يظن على الوداد بها العفاء
فلم أهجــرك ملَــلاً ولكن هو الرحمن يفعل ما يشــاء

ومن المقطوعات الصغيرة لشاعرنا ما قاله ارتجالا عقب ما جاءه خبر مقتل المسترشد بالله (رضوان الله عليه)[30]:

عنّفني في شرب كأسي ضَلالةً أقلّي فبين الأحمرين هلالُ
ومَا حالةٌ في الدهر إلا ستنقضي ويعقبها بعد البقاءِ زوالُ
كري عليَّ الكأس يا مَيَّ واعلمي بأنَّ تَصاريفَ الحياة خيالُ

إذ يبدو على هذه القصائد او المقطوعات قصرها وبناءها البسيط، مقارنة بالقصائد التقليدية التي اتخذت من الطول سمة بارزة في بنائها كما هو الحال في المعلقات والحوليات وغيرها الكثير، ولعل هذا البناء البسيط إنما جاء استجابة لروح العصر المتطور الذي فرض على الشاعر الكتابة بنفس قصير ووزن قصير أيضاً ولغة مفهومة بعيدة عن التكلف والصنعة.

ومن ملامح التجديد في شعر الحيص بيص أيضا هو الكتابة بلغة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية، ففي هذه اللغة تعبير عن أفكاره مباشرة بعيدة عن القيود، لهذا سرعان قبولها وانتشارها بين الناس ومنها قوله:[31]

تعجبو من عراقي بلا سفه ولا نفاق ولا خبث ولا كذب
واستعظموا شأن أقوالي فقلت لهم اني ولي علي ســـيد العرب

وقول شاعرنا في هذا الغرض:[32]

الحمدُ للّه كان المجدُ مُقْتسماً مفرَّقاً في شعوب الناس ذا شُعبِ
فآثر الله أنْ يحــوي مفرَّقه بالجمع ما بين فخر التُّرك والعربَ

وتبدو على هذه الأبيات اللغة البسيط القريبة من واقع الحياة اليومية، والتي فرضتها طبيعة الحياة الجديدة، فكان من الطبيعي ان ينعكس أثر هذه الحياة على الفن بصورة عامة والشعر بصورة خاصة، حيث تعتبر الاحداث السياسية والاجتماعية التي استجدت في العصر العباسي من أشد المؤثرات التي انعكست آثارها على الشعر، وعليه فقد كان طبيعيا ان تتأثر لغة الشعر الجديد بمجمل الظروف التي شدها هذا العصر، سواء أكان هذا التغيير على مستوى المفردات أم على مستوى التركيب.

ومن التجديد أيضاً عند الحيص بيص تجديده في بنية الأوزان، فكان في بعض قصائده يعمد إلى الاوزان القصيرة والمجزوءة، ولا سيما الاوزان التي يتغنى بها، والتي فرضتها طبيعة العصر العباسي، ومن ذلك قوله[33]:

زمانٌ كُلُّه هجر ... ووعدٌ كُلُّه مطْلِ
وموقوفٌ على التَّعذي ... ب لا يأس ولا وصل
فكونوا كيفما شئتم ... فمَا أجفو ولا أسلو
وما أعجب حرماني ... وأنتم للنَّدى أصل
سرى طَيفكُم وهنا ... ومنِ دونكُم الرَّمْل
فما بلَّ من الشَّوق ... فأين الجَدُّ والهزْلُ
سروري بَكُم والهَمُّ ... حالٌ منه لا أخلُو
فَحلْوي بكُم مـــرٌّ ... ومرِي بكُم يَحْلو

الخاتمة:

1- من خلال هذه الدراسة تتجلى صفات الشاعر الحيص بيص برجاحة العقل، والتحلي بالصبر وواسع الصدر، وذو بسالة، والانصراف عن سفيه القول، كما يبدو عريق الأصل، يتحلى بالحلم، ويغيث الملهوف ويسهر على حاجته ولا يدعه حتى يقضيها له.

2- يعد شاعرنا نسيج بين الشعراء المقلدين والمجددين وخاصة في مقدمات قصائده فقد كان تارة يسير على نهج المقلدين وتارة على نهج المجددين فتجده يبدأ قصائده بعيدا عن الاطلال والغزل ووصف الطبيعة.

3- كانت قصائد الحيص بيص ذات صورة فنية غزيرة، ولغة قوية جزلة ذات بناء لغوي محكم خالي من الاخطاء

4- لقد أحرزت القصيدة العربية على يديه تجديداً شكلاً ومضموناً

5- من اهم العوامل التي ساعدت على ظهور المناهج الجديدة في الشعر والتجديد في موضوعاته وأبنيته، هي اختلاف صور الحياة، وتأثير الثقافة الاجنبية والفارسية على الأدب

6- من اهم الأغراض الجديدة التي كتب فيها شاعرنا هو شعر التهاني، والذي يعد ظاهرة جديدة طرأت على سطح الشعر العربي

المصادر والمراجع:

1. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت:681هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، 1978م.
2. الخزاعلة أحمد محمد، شعر التهاني في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، 2008م.
3. الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد بن عثمان الذهبي (748هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ أشرف الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1405- 1985.
4. الصياد أيمن السيد، بناء القصيدة في شعر حيص بيص (دراسة في المضامين وآليات النص)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
5. الزعبي حسين علي، النقد والتجديد في الشعر العباسي بين التعصب والواقع، مجلة جامعة دمشق، المجلد (27)، العدد (3، 4)، 2011م.
6. حيص بيص، ديوانه، تحقيق: مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، منشورات وزارة الاعلام، العراق، 1974م.
7. طه حسين، تقليد وتجديد، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017
8. مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.
9. الدسوقي هبة رشاد، مظاهر التجديد في العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، 2008م.
10. الشويخ هند بن صالح، التجديد في الشعر العربي (بشار، أبو نواس، أبو العتاهية)، دار محمد علي للنشر، تونس، 2008م.

الهوامش:

(1) ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 362/2. وينظر أيضا: ديوان الحيص بيص، 36/1.
(2) ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب، ص117
(3) التجديد في الشعر العربي (بشار، أبو نواس، أبو العتاهية)، ص120
(4) تقليد وتجديد، ص9
(5) بناء القصيدة في شعر حيص بيص (دراسة في المضامين وآليات النص) 70_71.
(6) الديوان، 2/ 13.
(7) المصدر نفسه، 3/ 416
(8) بناء القصيدة في شعر حيص بيص (دراسة في المضامين وآليات النص)، ص78
(9) الديوان، 1/ 72
(10) المصدر نفسه، 360/1-361
(11) سير اعلام النبلاء، 16/15
(12) الديوان، 283/2
(13) المصدر نفسه، 76/3
(14) المصدر نفسه، 54/1
(15) المصدر نفسه، 336/1
(16) بناء القصيدة في شعر حيص بيص (دراسة في المضامين وآليات النص، ص73
(17) المصدر نفسه، ص70
(18) الديوان، 291/2
(19) المصدر نفسه، 201/1
(20) ينظر: النقد والتجديد في الشعر العباسي بين التعصب والواقع،182
(21) تقليد وتجديد، ص15
(22) ينظر: مظاهر التجديد في العصر العباسي الأول، 28
(23) شعر التهاني في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، 1
(24) الديوان، 115/2
(25) المصدر نفسه 300/3-301
(26) المصدر نفسه، 104/2
(27) المصدر نفسه، 58/1

(28) المصدر نفسه، 165/1
(29) المصدر نفسه، 174/1
(30) المصدر نفسه، 34/3
(31) المصدر نفسه، 21/3
(32) المصدر نفسه 91/2
(33) المصدر نفسه 35/3